جامعة النجاح الوطنية

مؤتمر سياسات الإبعاد والتطهير العرقي

عنوان المداخلة:

التطهير العرقي: كفعل استعماري استيطاني متعدد الدلالات والأبعاد

الباحث: أحمد عز الدين أسعد

2013 /11/26

التطهير العرقي: كفعل استعماري استيطاني متعدد الدلالات والأبعاد

"لا أظن أننا سنقهر هذا البلد [الهند] ما لم نكسر عظام عموده الفقري التي هي لغته، وثقافته، وتراثه الروحي".

توماس مكولاي، مهندس سياسة الإبادة الثقافية للشعوب المستعمَرة

"أن المشروع الاستعماري الإسرائيلي هو مشروع (تطهير مكاني) خلافاً للتطهير العرقي كونه يستهدف الأرض من اجل تسهيل الترانسفير (الطوعي) للشعب الفلسطيني."

ساري حنفي

"المشروع الصهيوني في نشأته وصيرورته ومراميه هو بنية استئصالية/ إقصائية الآخر بهدف الحلول محله في الفضاء الجغرافي الذي كان يشغله، اكتسب هذا المشروع خصائصه البنيوية في الاستئصال والإقصاء من مصدرين: أحدهما الكولونيالية/ الاستيطانية الأوروبية؛ والثاني ما استعاره من مفردات الكتاب العربي (العهد القديم) ليشكل منها مضمونه الأيديولوجي، بما فيها من تأسيس للفكر الإبادي، بل إسباغ صفة القداسة عليه من حيث هو فكر وفعل وممارسة أيضاً."

عصام سخنيني

1.1 مقدمة

تشير الروايات التاريخية التي تسرد تاريخ المستعمَر والمستعمِر إلى العديد من السياسات الكولونيالية، التي ينسخها المستعمِر عن مستعمِرين آخرين سبقوه في فعل الاستعمار والاستيطان، مثل التشابه بين الاستعمار

الاوروبي للأمريكيتين والاستعمار الصهيوني لفلسطين. (لقد) شهد التاريخ الإنساني المعاصر أبشع الإبادات الجماعية بحق الهنود الحمر السكان الشرعيين للقارة الأمريكية على يد المستعمِرين الأوروبيين البيض، فالإبادة الجماعية للهنود الحمر كانت إبادة جسدية فيزيائية لهذا العرق، وإبادة جنسية أنهت ديمومة التناسل وتعاقب الأجيال لهذا العرق، وإبادة ثقافية شملت لغة الهنود الحمر وثقافتهم وتراثهم الروحي والإنساني. تجدر الإشارة في هذا المقام أن مهندسي الإبادة الجماعية بأبعادها ووجوها المتعددة خرجوا من رحم القارة الأوربية البيضاء في القرن الثالث عشر الميلادي، تحديداً في العقد الأخير من القرن الثالث عشر(1495) هذا التاريخ حمال دلالات متعددة فهو عام سقوط الدولة العربية في الأندلس وخروج العرب منها، وعام طرد اليهود المزراحيم من شبه جزيرة إبيريا، وعام انطلاق حملة الاستعمار الأوروبي للاستيطان، أو بما يسمى في التاريخ حملة الكشوف الجغرافية أو فتح العالم الجديد.

خروج اليهود من اسبانيا واشتداد حملة الاضطهاد الديني والسياسي التي مارستها الكنيسة بحق اليهود، بالإضافة إلى رؤية اليهود لأنفسهم وللأخر في المجتمعات الأوروبية، الرؤية التي تنطلق من فكرة الاستعلاء والانعزال؛ خلقت بلبلة سياسية وثقافية واجتماعية في المجتمعات الأوروبية. هذه الأمور أدت إلى طرح مشروع الاستنارة الذي يهدف إلى دمج اليهود في المجتمعات الأوروبية في الدول القومية الناشئة والصاعدة في القرن السابع عشر وما تلاه، لم يحقق مشروع الاستنارة الأوروبية غاياته، بل فشل، وارتكبت الإبادات الدينية بحق اليهود في معسكر اشوفيتس وحدثت واقعة الهولوكوست بحق اليهود. في تلك الأثناء وقبل حادثة الهولوكوست كان هناك نشاط كثيف للحركة الصهيونية التي أخذت على عاتقها إنشاء وطن قومي لليهود، من ثم حسمت أمرها لعدد من الأسباب في اختيار فلسطين لتنفيذ المشروع الاستيطاني.

انطلقت الحركة الصهيونية من فرضية وخطاب "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض؛" عملت الحركة الصهيونية على تكثيف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين وصهينة الهجرة، وأقامت اليشوف والمستعمرات الزراعية منذ عام 1878 (مستعمرة بيتح تكفا الزراعية). مروراً بالانتداب البريطاني ووعد بلفور ومشروع التقسيم كانت هناك عملية تطهير مكاني من خلال شراء الأراضي والبيوت، مع بدء انسحاب الاستعمار البريطاني عن فلسطين وقبل انتهاء الانتداب بقليل أيضاً، شرعت الآلة الصهيونية الكولونيالية في عملية تطهير عرقي بحق الشعب الفلسطيني، أدى هذا الفعل الاستعماري الاستيطاني متعدد الدلالات والأبعاد إلى تشتيت الشعب الفلسطيني

والانقضاض على الحداثة الفلسطينية وليدة التشكل وإعاقة صيرورتها، النكبة كحدث مؤسس ومؤثر في التاريخ والمخيال الفلسطيني، نجمت عن عملية التطهير العرقي للمجتمع الفلسطيني ما زالت أثارها تتردد وتولد تطاهير استعمارية أخرى، أو ما يسميه إلياس خوري "بالنكبة المستمرة،" فالنكبة لم تنتهِ عام 1948 والتطهير العرقي والإبادة للمجتمع الفلسطيني لم تتوقف عام 1948، فالتطهير العرقي يحمل دلالات وأبعاد متعددة مازلت تفتك في بنيان المجتمع الفلسطيني.

1.2 مشكلة الدراسة

تتمحور مشكلة الدراسة في مساحة معرفية وتاريخية غاية في الحساسية والتعقيد والدقة. حيث تنطلق العديد من الدراسات والأدبيات التي درست موضوع النكبة كحدث عام والتطهير العرقي كمحور أساسي في فهم النكبة كمرحلة مفصلية في التاريخ الفلسطيني الحديث، تنطلق تلك الأدبيات من بوتقة الافتراض بان ما حدث عام 1948 هو عملية تطهير عرقي بحت هدفه إبادة الشعب الفلسطيني، دون التمعن في عدد الضحايا الناتجة عن عملية التطهير العرقي مع مساحة الأراضي التي تمت السيطرة عليها في النكبة، بالإضافة إلى الإبادة الثقافية والتطهير التاريخي والاسمي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي الذي لحق بالمجتمع الفلسطيني؛ فالمساحة التي يحتلها مفهوم التطهير العرقي اكبر بكثير من المساحة التي يحتلها التطهير الاجتماعي والتطهير الثقافي والتطهير السياسي والتطهير التاريخي والتطهير الاسمي والتطهير المكاني والتطهير المُدني (من المدينة)؛ من هذه البانوراما المعرفية يستل الباحث سؤالين أساسيين هما:

1. ما هي سياسات الحركة الصهيونية في استعمارها الاستيطاني لفلسطين؟ وما هي أثار تلك السياسات على المجتمع الفلسطيني؟
2. ما هي الدلالات والأبعاد والأفعال الأخرى التي يحملها ويتضمنها التطهير العرقي كفعل استعماري استيطاني؟

1.3 فرضيات الدراسة

تنطلق هذه الدراسة من فرضيتين، الفرضية الأولى مفادها؛ أن السياسة الإسرائيلية واستراتيجيات المشروع الصهيوني الكولونيالي في فلسطين شرعت في تنفيذ عمليات التطهير العرقي بحق الفلسطينيين من اجل خلق واقع استيطاني استعماري ينسجم مع الرؤية الصهيونية "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" من أجل تفريغ فلسطين من سكانها الشرعيين واستبدالهم بمستعمِرين غير شرعيين. وفي فرضية ثانية مدعمة للفرضية الأولى يفترض الباحث أن فعل التطهير العرقي كفعل استعماري يحمل في رؤيته وسياساته دلالات متعددة فالتطهير العرقي يحقق للمشروع الكولونيالي الإسرائيلي تطهير مكاني وتطهير اجتماعي وتطهير ثقافي، الذي يساوي في مخياله الاستعماري "تطهير الفلسطنة".

1.4 أهمية الدراسة

تنبع أهمية هذه الدراسة من تناولها لموضوع التطهير العرقي العمود الفقري للنكبة الشعب الفلسطيني عام 1948. حيث ما زال الشعب الفلسطيني يعاني من أثار التطهير العرقي التي وقعت عام 1948 وترتب عليها لجوء الفلسطيني وتشتتهم في دول العالم وما زالت مشكلة اللاجئين والمشاكل الأخرى التي نتجت عن فعل التطهير العرقي تأزم المجتمع الفلسطيني على الرغم من مرور 65 عام على تلك الأحداث والأفعال الاستعمارية، كما نزح الفلسطينيين نتيجة حرب عام 1967 بفعل عملية تطهير عرقي أخرى وما زالت قضية النازحين عالقة مثل قضية اللاجئين هذا في شق الأهمية الزمانية للدراسة. أما شق الأهمية المكانية للدراسة يتبلور من تمحيص الأبعاد المكانية والجغرافية المترتبة والناجمة عن التطهير العرقي كفعل استعماري استيطاني. بتزاوج الأهمية الزمانية والمكانية للدراسة تنبع الأهمية المعرفية للدراسة في موضعة التطهير العرقي كفعل استعماري في مساحة التفكيك والاستكشاف والمسائلة والتمحيص، لشق أفق معرفي كامن في هذه البوتقة التاريخية والجغرافية والمعرفية المرتبطة بالتطهير العرقي.

2.1 النكبة

ينطلق العديد من الباحثين من النكبة كحدث أولي في عملية استئصال الفلسطينيين، من دون التطرق إلى البنية التطهيرية التي أنشأتها الحركة الصهيونية في فلسطين قبل عام 1948، لتنفيذ عملية التطهير العرقي التي توجت بمجازر وعدوان عام 1948 "النكبة"، وعملت الحركة الصهيونية بشكل حثيث لزيادة عدد المهاجرين الصهاينة الى فلسطين من اجل استعمرها وإقامة الكيبوتسات فيها، ففي الفترة الواقعة بين 1904-1914 وصل 40000 مهاجر صهيوني الى فلسطين، وهاجر في الفترة 1919-1933 35000 صهيوني إلى فلسطين، وفي الفترة 1924-1928 67000 صهيوني[1]. يجدر الإشارة هنا أن التطهير العرقي لا يعني فقط طرد السكان الأصلين؛ إنما يشمل أيضاً إحلال سكان جدد مستعمِرين مكان السكن الأصلين، أو تجهيز المستعمِرين للقيام بمهمة التطهير "الفعلي" بعد عملية التطهير العرقي "التحضيري" التي تشمل الهجرة إلى الأماكن المراد إجراء التطهير فيها.

يشير بابيه أن التطهير العرقي الذي وقع عام 1948 كان حصيلة بنية استعمارية مؤسسة تضم إلى جانب الاستعدادات العسكرية، وحملات الهجرة الصهيونية؛ مجهود للباحثين والمستشرين، حيث يورد بابيه ذلك بقوله "كانت المحصلة النهائية لجهود الطبوغرافيين والمستشرقين (عمل) ملفات مفصلة لجميع قرى فلسطين، عمل الخبراء الصهيونيين على استكمالها بالتدريج بحيث اصبح الارشيف مكتملاً تقريباً في اواخر الثلاثينات من القرن الماضي. وقد تضمن ملف كل قرية تفصيلات دقيقة عن موقعها الطوبوغرافي، وطرق الوصول إليها، ونوعية أراضيها، وينابيع المياه، ومصادر الدخل الرئيسية، وتركيبتها الاجتماعية- الاقتصادية، والانتماءات الدينية للسكان، وأسماء المخاتير، والعلاقات بالقرى الأخرى، وأعمار الرجال (من سن 16- سن50)، ومعلومات كثيرة أخرى. ومن فئات المعلومات المهمة كان هناك مؤشر يحدد درجة (العداء) للمشروع الصهيوني، بناءً على مشاركة القرية في ثورة 1936.[2]" هذه المؤشرات تؤكد صحة الافتراض أن التطهير العرقي في فلسطين سابق للنكبة ويمكن اعتبار النكبة ذروة التطهير العرقي في فلسطيني.

---

[1] بابيه، إيلان. **التطهير العرقي في فلسطين**. أحمد خليفة (مترجم). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. 2007. 319-320.

[2] المصدر السابق: 28.

2.2 ما بعد النكبة واستئناف التطهير العرقي بأبعاده المتعددة

بدأ مشروع التطهير العرقي قبل 1948 ولم يتوقف بالنكبة ومازال يستأنف نفسه حتى الأن. يكثف الروائي الفلسطيني إلياس خوري هذه الاستمرارية الاستعمارية للمشروع الصهيوني بمصطلح "النكبة المستمرة" ويوصفها بقوله "إن النكبة ليست حدثاً تاريخياً أُنجز في سنة 1948، وإنما هي مسار مستمر لم يتوقف منذ ثلاثة وستين عاماً، أي أن قراءتها بصفتها ماضياً تحجب حقيقته، فالمسار النكبوي مستمر ويتخذ أشكالاً متعددة، بحسب المراحل التاريخية، فالنكبة هي حاضر فلسطين لا ماضيها.[3]"

يتفق وليد الخالدي كذلك مع هذا الموقف، ويرى أن التهجير الجماعي هو الهدف الرئيسي لخطة دالت وابتدأ التهجير في مرحلة أولى سابقة للخطة، ولم يتوقف حتى يومنا[4]. فالتطهير العرقي والنكبة كفعل ذروة للفعل الاستعماري الصهيوني لم يبدأ مع خطت دالت، التي يرى بابيه أنها حسمت مصير الفلسطينيين القاطنين داخل الاراضي التي أراد القادة الصهيونيين الاستيلاء عليها لإقامة دولة إسرائيل فقضت الخطة دالت بطرد الفلسطينيين من وطنهم بشكل منهجي وكلي[5]، بل أن التطهير العرقي حدث قبل النكبة وبعدها وما زال يشرع أبوابه لخلق سياسات محو للعرق الفلسطيني في جغرافيا فلسطين.

بعد احتلال عام 1967 عملت إسرائيل على استمرار النكبة حيث هدمت جرافات الاستعمار ثلاث قرى فلسطينية في الضفة الغربية (يالو، عمواس، بيت نوبا) وحولت أراضي هذه القرى الى غابات (غابة كندا) ومستعمرات وكانت الخطة تهدف إلى التخلص من السكان الواقعين في أصبع اللطرون الواقع بالقرب من الطريق الرابط بين القدس وتل ابيب[6]. استئصال السكان الفلسطينيين وتطهيرهم عرقياً يمنح الاستعمار الصهيوني فضاء ومجال للممارسة شهوته الاستعمارية، دون مقاومة أو تصدي من قبل السكان المشردين والمنكوبين.

---

[3] خوري، إلياس. "النكبة المستمرة." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 89. 2012: 37.

[4] الحوت، بيان نويهض. "المؤرخون الفلسطينيون والنكبة." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 89. 2012: 66.

[5] بابيه، إيلان. مصدر سابق: 38.

[6] الجعبة، نظمي. "الاستيطان الكولونيالي في الضفة الغربية والقدس: قراءة في ابعاد وأشكال السيطرة على الأرض." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 89. 2012: 62.

عملت أيضاً خطت آيلون التي انطلقت في استعمار فلسطين بعد حرب عام 1967 على تكثيف الأسافين الاستعمارية التي تهيمن على الخارطة الفلسطينية، وأنجز من الخطة حتى عام 1977 (21) مستعمرة استيطانية وتم تهويد وادي الأردن، وأجزاء من بيت لحم والخليل[7]. كما شكلت (الخطة الرئيسية لتنمية الاستيطان في يهودا والسامرة (1979– 1983)) التي صدرت عام 1978 عن المنظمة الصهيونية العالمية والتي تسمى أيضاً خطة دروبلس، المخطط الرئيسي لمستوطنات الضفة الغربية، يطمس النمو الاستيطاني في هذه الخطة حدود الخط الاخضر (خط الهدنة لعام 1948)[8].

هذه المؤشرات تدل على أن هدف الاستعماري الصهيوني أكبر من عملية تطهير عرقي، فالتطهير العرقي يحمل أبعاد ودلالات مختلفة فمثلاً دلالات الاستيطان الاستعماري الشره ببناء المستوطنات والطرق الرئيسية والالتفافية، يوضح أن هناك تطهير مكاني بموازاة التطهير العرقي، فكل تطهير عرقي يفضي إلى تطهير مكاني فالسكان بعد طردهم وقتلهم يخلو المكان من قاطنيه ويحل مكانهم المستعمِرين، كذلك التطهير المكاني وبناء المستوطنات ومصادرة الأراضي تعمل على منع الفلسطينيين من ممارسة نشاطهم البشري في هذه الأمكنة مما يفضي هذا التطهير المكاني إلى صهينة المكان والمشهد الطبوغرافي مثلما حدث لمسجد بلال بن رباح شمال مدينة بيت لحم، والحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل، فتم صهينة للمكان بفعل عملية التطهير المكاني.

2.3 سياسات استعمار فلسطين

2.3.1 سياسات زراعية

[7]بابه، إيلان. "المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية: الاحتلال والتطهير العرقي بوسائل أخرى." ترجمة ثائر ديب. **مجلة الدراسات الفلسطينية**، عدد 91. 2012: 110.

[8]تيلي، فرجينيا. "الأسس الإستراتيجية لبناء المستوطنات اليهودية." هاني احمد فارس (محرر) وآخرون. **حل الدولة الواحدة للصراع العربي– الإسرائيلي بلد واحد لكل مواطنيه**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2012: 46.

عملت الحركة الصهيونية بشكل مكثف على تشجيع الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، وقامت بإنشاء أول مستعمرة زراعة (بتاح تكفا) على أرض فلسطين عام 1878، وتم اعتماد سياسات زراعة اشتراكية في الكيبوتسات الصهيونية وتشجيع الصهاينة المستعمِرين للعمل في الأرض المقدسة (فلسطين)، ويمكن استخلاص مقولة مركزية في فهم طبيعة الحركة الصهيونية العدوانية اتجاه فلسطين، فالصهيونية حركة استعمارية عملت على تجسيد ايديولوجيا وخيال مولع بالأرض، وأنزلت هذه الايدولوجيا والخيال إلى حيز التطبيق من خلال اهتمامها بالأرض، واستعمارها بالزراعة، وسكنها، وتعميرها، واستصلاحها لتكون الحاضنة الجغرافية للدولة الاستعمارية المنشودة، كما أن السياسات الزراعية تحقق عدد من الأهداف القومية للحركة الصهيونية، من خلال حيازتها للفضاء جغرافي، وتأمينها عمل يومي للمستعمرين الوافدين إلى فلسطين في اليشوف والكيبوتسات الزراعية، وتأمين مصدر تنموي اقتصادي للرفد الحركة الاستعمارية، والتعرف على طبيعة الطبوغرافية الفلسطينية والسكان والثروات.

2.3.2 سياسات ديمغرافية

ارتكز الفعل الاستيطاني الصهيوني في فلسطين على تكثيف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ومن ثم العمل على صهينة هذه الهجرة وقومنتها، بصبغة يهودية، فبدأ ارتفاع تدريجي في نسبة السكان اليهود في فلسطين سنة بعد أخرى بفعل سياسات الهجرة الصهيونية، التي شجعت الهجرة إلى فلسطين واستعمارها، وتواطأت العديد من دول العالم بما فيها دول عربية بالسماح بهجرة اليهود الى فلسطين، وعملت الحركة الصهيونية على إثارة المشاكل في المجتمعات التي يقطنها يهود من أجل تشجيع وتيرة الهجرة إلى فلسطين، مثل تفجير الكنس اليهودية في العراق، وتواطأ الانتداب البريطاني بفعل الضغوط الصهيونية بالسماح للموجات كثيفة من المهاجرين اليهود بالدخول إلى فلسطين، كذلك اعتمدت الصهيونية على سياسات تشجيع تهجير الفلسطينيين وشراء بيوتهم ومزارعهم لتوطين الديمغرافيا الصهيونية المستعمِرة في هذه الفضاءات الفلسطينية، وأكبر وأخطر السياسات الديمغرافية التي اتبعتها الحركة الصهيونية هي المجازر، والإعدامات الجماعية للفلسطينيين وعملية التطهير العرقي التي اندلعت قبل النكبة وما زالت مستمرة حتى اليوم مثل ترحيل الفلسطينيين وإبعادهم وإعدامهم واعتقالهم، وسحب الهويات من المقدسيين وعدم قبول لم الشمل للعائلات الفلسطينية.

2.3.3 سياسات الهيمنة على الفضاء

اعلنت الحركة الصهيونية شعارها الاستعماري أن فلسطين "أرض بلا شعب للشعب بلا أرض،" ويؤكد أرئيل هانول صحة أن الصهيونية مولعة بالأرض بقوله "منذ بداية الحركة الصهيونية، كان الحيز المكاني هو جوهر الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي.[9]" فالفضاء الجغرافي ركن أساسي لأي عملية استعمارية، ولذلك عملت الحركة الصهيونية ومن ثم إسرائيل التجسيد الدولاني للحركة الاستعمارية الصهيونية على تبني وتشريع وتنفيذ سياسات متعددة للهيمنة على الفضاء الفلسطيني، ومن ثم صهينته، بأفعال مثل شراء الأرض والعقارات في فلسطين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال السماسرة، وإقامة المستعمرات الزراعية، وهدم القرى الفلسطينية والمدن، ومصادرة الأراضي، وإخلاء وتشريد السكان الفلسطينيين من فضاءهم الجغرافي، وتشريع قانون أملاك الغائبين، والسيطرة على الفضاء بحجج وسياسات دينية أو أمنية أو عسكرية أو تاريخية أو استراتيجية[10]. وما يورده سري المقدسي في مقاربته خير مثال على سياسات الهيمنة على الفضاء الفلسطيني أن نسبة اليهود الى غير اليهود (الفلسطينيين) في القدس تتراوح 72% للإسرائيليين و28% للفلسطينيين. يسمح للفلسطينيين في القدس التجول فقط في 10% من مساحة المدينة 90% من الأراضي الفلسطينية الملحقة بالقدس عام 1967 ومحضور على الفلسطينيون تنميتها بسبب إلحاقها بالمستوطنات أو بسبب محافظة إسرائيل عليها للأغراض التوسع المستقبلي[11].

---

[9] هانول، أرئيل. "أين، والى أين، ومتى في الارض المحتلة؟ مقدمة لجغرافية الكارثة." ساري حنفي (وآخرون محررون). **سلطة الإقصاء الشامل: تشريح الحكم الاسرائيلي في الارض الفلسطينية المحتلة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2012: 211.

[10] للمزيد حول سياسات الهيمنة الصهيونية على الفضاء الفلسطيني انظر. أسعد، أحمد عز الدين. "الهندسة الاستعمارية الصهيونية للمشهد الفلسطيني." **تسامح**. عدد 35. 2011: 131-138.

[11] المقدسي، سري. "مشروع عنصري إعادة تكوين مجتمع القدس." هاني احمد فارس (محرر) وآخرون. **حل الدولة الواحدة للصراع العربي- الإسرائيلي بلد واحد لكل مواطنيه**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2012: 79-80.

2.3.4 سياسات لاهوتية

لعبت التوراة دور في التاريخ والثقافة الإسرائيلية والصهيونية، وساهمت في العقيدة الصهيونية، فالعودة إلى العهد القديم لم يكن منحى يهودي من الناحية العنصرية والتكوينية، بل كان بروتستانتياً ذا تاريخ مدين لعهد الإصلاح، ولجئت الكثير من المجتمعات الاستيطانية والحملات الاستعمارية الى العهد القديم والكتاب المقدس، واللجوء إلى العهد القديم هو جزء من مخطط ليس قومي فقط إنما قومي استعماري[12]. حضور اللاهوت في المخيال الصهيوني كان معززاً لتجنيد اليهود حول الحركة الصهيونية، وتطعيمها بنفحات قومية من خلال الديانة اليهودية التي حولتها الصهيونية للقومية، عابرة للقوميات حيث جمعت اليهود في كل أصقاع الأرض اليهودي العربي واليهودي البولندي واليهودي الروسي واليهودي الحبشي، ضمن بوتقة استعمارية قومية، مستندة إلى سياسات لاهوتية حتى أضحى "الولع بالكتاب المقدس مكون مركزي في الهوية الإسرائيلية[13]." تجلت قوة السياسات اللاهوتية بتحولها إلى سياسات قومية فاستعمار فلسطين بدا بالتستر كمشروع ديني خلاصي لليهود العالم وثم تحول للمشروع قومي استعماري علانياً "أن الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي ليس مجرد صراع بين مجتمعات قوية للحصول على الأرض نفسها إنما هو صراع بين مجتمع قومي مؤلف من مستوطنين ومجتمع قومي مؤلف من سكان أصليين.[14]" وعادت السياسات اللاهوتية-القومية لتمتزج معاً في خطاب صهيوني وشفوني بامتياز بإعلان إسرائيل دولة يهودية والمطالب بالاعتراف بيهودية الدولة.

2.3.5 سياسات قانونية

---

[12] ا بتربغ، غابرييل. "هدم رواية الاستيطان الصهيوني وإنشاء بديل لها." هاني احمد فارس (محرر) وآخرون. **حل الدولة الواحدة للصراع العربي- الإسرائيلي بلد واحد لكل مواطنيه**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2012: 149-150.

[13] المصدر السابق: 150.

[14] المصدر السابق: 143.

اعتمدت إسرائيل على سياسات قانونية متعددة للفتك بالفلسطينيين أرضاً وشعباً وتاريخاً وثقافتاً، فإسرائيل دوله بلا دستور يحكما، وتعمل على الاستفادة من الثغرات القانونية التي تخدم مصالحها، بالرجوع إلى القوانين العثمانية التي طبقت في فلسطين أيام الحكم العثماني، وتارة تركن إسرائيل إلى قوانين الانتداب البريطاني لفلسطين، وتستخدم كذلك قانون الحكم الأردني للضفة الغربية، وقانون الحكم المصري للقطاع غزة. خليط هذه القوانين يتيح لإسرائيل مرونة عالية لاستعمارها لفلسطين من حيث الاستيلاء على الاراضي أو تهجير السكان، وعدم السماح لهم بالعودة بحجج قانونية، أو استملاك ومصادرة العقارات الفلسطينية. إضافة إلى ذلك تشرع المنظومة القانونية والتشريعية الإسرائيلية، في بذل جهد كثيف في قوننة العمل الاستعماري، من خلال استصدار القوانين واللوائح المتعاقبة والمتتابعة التي تضفي صفة قانونية على أي عمل إسرائيلي، مثل المصادقة الوزارية على بناء المستوطنات، وسن قانون للاستيطان، وقانون للعودة، وقانون لأمك الغائبين وغيرها من القوانين ذات الطابع والبنية الاستعمارية.

2.3.6 سياسات عسكرية

لم تكن السياسات العسكرية الصهيونية الاستعمارية سياسات عفوية؛ إنما كانت سياسات ممنهجة ومدروسة. كان المستعمرون الصهاينة يتدربون على السلاح في المعسكرات البريطانية، وتم تشكيل قوات ومليشيات عسكرية صهيونية للحماية المستعمرات الصهيونية قبل النكبة. وشاركت وحدات من الهاغانا في الحرب العالمية الثانية، إلى جانب بريطانيا من أجل اكتساب الخبرة، والمهارات العسكرية الحربية. ووضعت الحركة الصهيونية خطط متعددة للاستعمار فلسطين، مثل خطة دالت، وخطة آيلون، وخطة الأحزمة، وكانت تتضمن هذه الخطط سياسات عسكرية تسهل عمليات السيطرة والاستعمار للفلسطينيين. وتمثل السياسات العسكرية مخالب الاستعمار وأنيابه، من خلال تدشين نقاط التفتيش، وأبراج المراقبة، ونقاط أمنية، ونقاط الحراسة، والشوارع العسكرية، والجدران الامنية والعسكرية، كل هذه المنتوجات عبارة عن انعكاس وتطبيق عملي للسياسات العسكرية.

2.3.7 سياسات البنية التحتية والإسكان

شرعت الحركة الصهيونية بإعداد البنية التحتية الاستعمارية، والمساكن، والبيوت للمستعمِرين الصهاينة، للقيام باستعمار فلسطين وفق منظومة سياسات تخلق دولة استعمارية مكان فلسطين الانتدابية، التي ما زالت تعاني من إشكاليات كبيرة في مجال البنية التحتية والإسكان، فقامت الحركة الصهيونية بتعبيد الشوارع وشقها لتسهيل حركة المستعمِرين الصهاينة، وأقامت التجمعات الاستيطانية والكيبوتسات الزراعية، ومازلت إسرائيل كدولة استعمارية، تعتمد على نفس السياسات، وقامت أيضاً بتطويرها وتفعيلها لتكون أكثر استعمارياً من قبل، ويصف سري المقدس هذه الحالة وخصوصاً المستوطنات بقوله، تمثل الكتل الاستيطانية مناطق اثنية صرفة وقائمة على حساب التواصل الجغرافي للمدن والقوى الفلسطينية، وهدف هذه المستوطنات القضاء على التواصل[15].

2.3.8 سياسات ثقافية

قامت الحركة الصهيونية على أسس ايديولوجية لاهوتية استعمارية فكانت الثقافة الصهيونية/ الإسرائيلية ثقافة استشراقية دون منازع، فقامت الحركة الصهيونية منذ وقت مبكر بدراسة المجتمع الفلسطيني، والتعرف على ثقافته من أجل الهيمنة عليه واستعماره بعد التعرف عليه، فالثقافة سنام المجتمع ونافذته للمجتمعات الأخرى، فتسللت السياسات الثقافية اللاستعمارية إلى المجتمع الفلسطيني، وفتكت في بنيانه من خلال إعادة تسمية الأمكنة الفلسطينية الشوارع والتلال والأودية والمدن والقرى والأماكن الدينية وغيرها من المواقع والفضاءات الفلسطينية، وكما يخلص عبد الرحيم الشيخ أن "التسمية فعل خلق وأماته في آن واحد."[16] فسياسات التسمية الصهيونية تميت الأسماء العربية الفلسطينية الأصلية وتحي على رفاتها أسماء عبرية/ استعمارية/ استشراقية/ صهيونية/ إسرائيلية/ يهودية، فيعيد فعل التسمية كتطهير أسمي تخليق سحنة المشهد والفضاء الفلسطيني.

---

[15] المقدسي، سري. مصدر سابق: 70.

[16] الشيخ، عبد الرحيم. "متلازمة كولومبوس وتنقيب فلسطين: جينيالوجيا سياسات التسمية الاسرائيلية للمشهد الفلسطيني." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 83. 2010: 89.

شملت السياسات الثقافية الاستعمارية تدمير البنى الثقافية الفلسطينية، مثل المكتبات ومصادرة محتوياتها إلى مكتبات الجامعات الصهيونية الإسرائيلية، وتشير المؤرخة الفلسطينية بيان نويهض الحوت إلى دور المواطن المقدسي أحمد حسين هرماسي الذي انقض مكتبة الكلية العربية على جبل المكبر عندما حاول اليهود الاستيلاء عليها فأنقذ أكثر من 13000 كتاب، واستقرت الكتب في الكلية الرشيدية[17]، وتم اهدار الكثير من الكتب التي تمت مصادرتها وسرقتها لصالح الاحتفاظ بها بمكتبات الجامعة العبرية.

3.1 تأثير السياسات الاستعمارية على فلسطين

تمثلات السياسات في الواقع تتبلور على شكل منتوج من جنس السياسات، فإذ كانت السياسات ثقافية يتمثل المنتوج ثقافياً، وإذ كانت السياسات استعمارية يتمثل المنتوج استعمارياً. فالسياسات الاستعمارية تكون بمثابة الناصية الاستعمارية والخارطة الاستعمارية، التي تصنع "كسوف فلسطين" وتعمل على محو التمثلات الفلسطينية المدشنة في الفضاء الفلسطيني. عملت جملة السياسات الاستعمارية المتبعة بالتوالي والتوازي للهيمنة والسيطرة والاستعمار على/ في فلسطين، بإنتاج نمط إنتاج كولونيالي "استعماري استيطاني" ويصف غابرييل بتربغ الحالة الاستعمارية في فلسطين بقوله "أن الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي ليس مجرد صراع بين مجتمعات قوية للحصول على الأرض نفسها أنما هو صراع بين مجتمع قومي مؤلف من مستوطنين ومجتمع قومي مؤلف من سكان أصليين.[18]" مع الإشارة أن المجتمع القومي الصهيوني فعلاً هو يستهدف الأرض في فكره وسياساته ومنتوجه الاستعماري لتجسيد الحلم الصهيوني وإنزاله من سماء اليوتوبيا، ولاهوت الاستعمار إلى جغرافيا الأرض المتخيلة استشراقياً بأنها أرض هيكل سليمان ومملكة داود الملك، وهذه المقولة يلامسها آمال جمال بمقولته "أن استيطان الارض -كل الأرض- هو قيمة جوهرية متجسدة في منطق حق

[17] الحوت، بيان نويهض. مصدر سابق: 57.

[18] بتربغ، غابرييل. مصدر سابق: 143.

وجود اليهود على أرض إسرائيل، وتشكل أحد المعتقدات الأساسية في الفكر السياسي الصهيوني."[19] فاستعمار الأرض والتنظير لها ركن أساسي في السياسات والفكر والمنتوج الاستعماري الصهيوني.

3.2 التطهير العرقي: قراءة توليفية مغايرة

يعد فعل التطهير العرقي أحد أخطر الأفعال الاستعمارية، لما ينتجه من تقويض للبنى الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمع المستعمَر والذي تنشب فيه أظافر التطهير العرقي. تعرض المجتمع الفلسطيني للتطهير عرقي في مراحل مبكرة من الهجمة الصهيونية حيث تم توطين المستعمِرين الصهاينة في فلسطين كتطهير عرقي للفضاء البشري غير المأهول بالسكان للتسريع وتيرة التطهير العرقي في الفضاءات المأهولة بالسكان الأصلين، حين تتاح الفرصة الاستعمارية المؤاتية لذلك. فالتطهير العرقي مورس في فلسطين وفق سياسات ممنهجة تفضي للأفعال استعمارية متعددة الأبعاد والدلالات.

يتضمن التطهير العرقي أو المساحة التنظيرية التي احتلها مصلح التطهير العرقي، تطهيرات عدة، تتمثل وتتجلى كأفعال استعمارية في (التطهير المكاني، والتطهير الاجتماعي، والتطهير المدني، والتطهير السياسي، والتطهير الاقتصادي، والتطهير الثقافي، والتطهير الأسمي). يدمج التطهير العرقي في بوتقته الاستعمارية "التطهير الاجتماعي بمعنى استهداف المجتمع الفلسطيني بأكمله وروابطه الاجتماعية. التطهير الاقتصادي منع تنقل السكان والبضائع. التطهير السياسي أي تدمير مؤسسات السلطة الفلسطينية وغيرها من تجسيدات الحرب الإسرائيلية لا يشمل فقط دمار الأبنية، بل أيضاً ذاكرة السكان."[20]

قراءة التطهير العرقي كفعل استعماري متعدد الابعاد والأفعال، يبرز حجم سعار الاستعمار الصهيوني وشراهته على الأرض (الجغرافيا الفلسطينية) كمحور أساسي ومبدئي في العقيدة الاستعمارية الصهيونية، بمعنى أن التطهير العرقي يتضمن تطهير مبطن آخر ضمن فلسفته الاستعمارية الذي يتمثل في التطهير

---

[19] جمال، آمال. "مصادر قوة المستوطنين اليهود في الاراضي الفلسطينية." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 90. 2012: 86.

[20] حنفي، ساري. "التطهير المكاني: محاولة جديدة لفهم استراتيجيات المشروع الكولونيالي الإسرائيلي." **المستقبل العربي**. عدد 360. 2009: 71-72.

المكاني. يوضح لنا الباحث والأكاديمي الفلسطيني ساري حنفي ماهية التطهير المكاني الذي يتجلى في الاقتلاع والاحتلال والدمار للمجال المكاني والأرض، وتكون خسارة الأرض أكثر من خسارة البشر[21]. والذي ينسجم ويعتبر تماثلاً مع المقولة الصهيونية الاستعمارية فلسطين "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

تعد سياسة التطهير المكاني بنية دائمة للإزالة والتهجير السياسيين والقانونيين، وترمي هذه السياسة إلى تذرية السكان الفلسطينيين داخلياً و/ أو خارجياً خارج الحدود المتغيرة لدولة إسرائيل. وتعتمد هذه السياسات على مزيج من ثلاث استراتيجيات هي[22]:

1. إبادة المجال المكاني.
2. استراتيجية التطهير العرقي التي ادت الى طرد 800 الف فلسطيني وتدمير 351 قرية فلسطينية.
3. استراتيجية تفرقة عنصرية دءوبة تشمل الحواجز الاقتصادية والجغرافية والإثنية التي خلقتها المجموعة المهيمنة (إسرائيل) ضد المجموعة الضعيفة (الفلسطينيين).

يبدو أن اقتلاع ثلاثة أرباع مليون فلسطيني من أرضهم يمكن أن يكون متواضعاً، بالمقارنة بترحيل ملايين الناس في أوروبا نتيجة الحرب العالمية الثانية، أو ما حدث من طرد في افريقيا في القرن الحادي والعشرين "لكن يتعين على المرء أحياناً أن يخضع الأرقام لقاعدة النسبية."[23] وفي نفس السياق يجادل ساري حنفي أن نسبة الأرض التي تم تطهيرها في فلسطين تفوق نسبت التطهير العرقي، وبهذا يمركز حنفي مقولته الأساسية حول التطهير المكاني ويكثفها بعبارته "المشروع الاستعماري الإسرائيلي هو مشروع تطهير مكاني كونه يستهدف الأرض من أجل تسهيل الترانسفير الطوعي للشعب الفلسطيني."[24]

ونجح التطهير العرقي بما يحمله في جوفه من سياسات تطهيرية، كالتطهير الاجتماعي في توهين عرى المجتمع الفلسطيني وتفكيك روابطه ووشائجه الاجتماعية، وأسهم في بلورة الهويات الاجتماعية المناطقية

---

[21] المصدر السابق: 67.

[22] المصدر السابق: 69-70.

[23] بابيه، إيلان. **التطهير العرقي في فلسطين**. مصدر سابق: 16.

[24] حنفي، ساري. مصدر سابق: 69.

خصوصاً في صفوف المخيمات، فصار اللاجئ الفلسطيني ينسب نفسه إلى قريته المطهرة عرقياً ومكانياً واجتماعياً، فأصبح أسم القرية حاضراً في هوية الفرد اللاجئ، ومن الأمثلة على ذلك ظهور تعريفات مناطقية (العجوري نسبة إلى عجور، زكراوي نسبة إلى بيت زكريا، عطابي نسبة إلى بيت عطاب، مالحي نسبة إلى المالحة، لفتاوي نسبة إلى لفتا) فحضر غياب فلسطين كهوية وطنية/ قومية لصالح حضور الهويات الما قبل حداثية (الهوية المناطقية) بفعل انقضاض المشروع الصهيوني على الحداثة الفلسطينية، التي بدأت بالتبلور في فلسطين مطلع القرن العشرين.

اخذ التطهير الاقتصادي أبعاد متعددة تمثلت في تقويض البنية الاقتصادية الفلسطينية وتطهيرها، من خلال مصادرة الأرض الفلسطينية التي تمثل أهم الركائز الاقتصادية والتنموية للمجتمع الفلسطيني، فالتطهير الاقتصادي الاستعماري تمثل في مصادرة الأراضي الفلسطينية، وأقامت المستعمرات الزراعية في فلسطين، والسيطرة على مصادر المياه، ومنع إقامة المشاريع التنموية النهضوية للفلسطينيين، وإلزام الفلسطينيين بسقف أوسلو السياسي– الاقتصادي خصوصاً برتوكول باريس الاقتصادي الذي طهر الفلسطينيين اقتصادياً، إضافة إلى السيطرة على المعابر والحدود وحركة التجارة والاستيراد ونوعية المواد المستوردة بمنع دخول بعض المواد الزراعة والطبية وغيرها من المواد. أما التطهير السياسي فيتمثل في الانقضاض على الهوية السياسية للشعب الفلسطيني، وحضر العمل السياسي على الفلسطينين ومطاردة الناشطين وتصفيتهم جسدياً، وهنا تتضح خطوط الاشتباك بين التطهير السياسي والتطهير العرقي في التصفية الجسدية للفلسطينيين. ويتجلى التطهير السياسي في عدد من الممارسات الصهينة، التي تتمثل في محاربة الأحزاب السياسية مادياً ومعنوياً وفكرياً، والإرهاب السياسي الذي مارسته الحركة الصهيونية، ومن بعدها دولة الاستعمار الاستيطاني إسرائيل ضد منظمة التحرير الفلسطينية كقيادة وكوادر وبرنامج سياسي ومؤسسات مثل مركز الأبحاث والمليشيات، ويشمل التطهير السياسي تدمير المشروع الوطني الفلسطيني بذروة التطهير السياسي بصفقة أوسلو وإجهاض الميثاق الوطني الفلسطيني، وكذلك تدمير مؤسسات السلطة الفلسطينية وهدمها والعبث بمحتوياتها ووثائقها.

خلاصة عامة

قاربت هذه الدراسة التطهير العرقي كفعل استعماري استيطاني، يتضمن في ثناياه العديد من التطاهير الاستعمارية الأخرى مثل (التطهير المكاني، التطهير الاقتصادي، التطهير السياسي، التطهير الاجتماعي، التطهير المدني)، جملة هذه التطاهير تعمل هذه الدراسة على تكثيفها واختزالها في مصطلح تم نحته باصطلاح "تطهير الفلسطنة" أي تطهير الهوية الفلسطينية بسردياتها الكلاسيكية الكبرى المتمثلة في (الديمغرافيا– البشر، والجغرافيا– الأرض، والهستغرافيا– الرواية) فالتطهير العرقي لم يعد مجدي للتوصيف الكارثة التي لحقت بالشعب الفلسطيني قبل النكبة وأثناء النكبة وما بعد النكبة "النكبة المستمرة،" وما تحاول هذه الدراسة قوله كرسالة أخلاقية وطنية أن "تطهير الفلسطنة" كوحدة لتحليل ودراسة الكارثة التي حلت بفلسطين أجدر بالتعميم واعتمادها كوحدة للتحليل، بدل اعتماد التطهير العرقي وإفرازاته كوحدة تحليل، بمعنى أن يستخدم مصطلح "تطهير الفلسطنة" للتنقيب والتنظير والتفسير لتاريخ الفلسطيني واعتماد هذا المصطلح لفهم السياق الفلسطيني والمشروع الاستعماري الاستيطاني في فلسطيني ومحاربته وإيقاف المسار الاستعماري في فلسطين. يعد "تطهير الفلسطنة" مفهوم تنافذي فضفاض يشمل أي عمل استعماري تقوم به إسرائيل أو قامت به إسرائيل والحركة الصهيونية سابقاً أو ما تخطط له الدولة الاستعمارية مستقبلاً، ولمواجهة "تطهير الفلسطينة" بجدر بالفلسطينيين أولا وباقي المناصرين والداعمين لعدالة القضية الفلسطينية ثانياً مواجه سياسات "تطهير الفلسطنة" بسياسات تعزيز وتثبيت وتدشين الفلسطنة بسردياتها الكبرى (الأرض، والإنسان، والرواية).

قائمة المراجع

أسعد، أحمد عز الدين. "الهندسة الاستعمارية الصهيونية للمشهد الفلسطيني." **تسامح**. عدد 35. 2011.

بابيه، إيلان. "المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية: الاحتلال والتطهير العرقي بوسائل أخرى." ثائر ديب (مترجم). **مجلة الدراسات الفلسطينية**، عدد 91. 2012.

بابيه، إيلان. **التطهير العرقي في فلسطين**. أحمد خليفة (مترجم). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. 2007.

بتربغ، غابرييل. "هدم رواية الاستيطان الصهيوني وإنشاء بديل لها." هاني احمد فارس (محرر) وآخرون. **حل الدولة الواحدة للصراع العربي- الإسرائيلي بلد واحد لكل مواطنيه**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.2012.

الجعبة، نظمي. "الاستيطان الكولونيالي في الضفة الغربية والقدس: قراءة في ابعاد وأشكال السيطرة على الأرض." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 89. 2012.

جمال، آمال. "مصادر قوة المستوطنين اليهود في الاراضي الفلسطينية." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 90. 2012: 86.

الحوت، بيان نويهض. "المؤرخون الفلسطينيون والنكبة." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 89. 2012.

خوري، إلياس. "النكبة المستمرة." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 89. 2012.

الشيخ، عبد الرحيم. "متلازمة كولومبوس وتنقيب فلسطين: جينيالوجيا سياسات التسمية الاسرائيلية للمشهد الفلسطيني." **مجلة الدراسات الفلسطينية**. عدد 83. 2010.

المقدسي، سري. "مشروع عنصري إعادة تكوين مجتمع القدس." هاني احمد فارس (محرر) وآخرون. **حل الدولة الواحدة للصراع العربي- الإسرائيلي بلد واحد لكل مواطنيه**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2012.

هانول، أرئيل. "أين، والى أين، ومتى في الارض المحتلة؟ مقدمة لجغرافية الكارثة." ساري حنفي (وآخرون محررون). سلطة الإقصاء الشامل: تشريح الحكم الاسرائيلي في الارض الفلسطينية المحتلة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2012.